الأستاذتين:

أ د/ الزهرة لحلح ود/فاطمة سوالمي

البريد الإلكتروني: zlahlahe@yahoo.com

البريد الإلكتروني: soualmifatima@gmail.com

جامعة الانتماء: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين

قسم العقيدة ومقارنة الأديان

عنوان الملتقى:

السيرة النبوية في الكتابات الأدبية عند المستشرقين

عنوان المداخلة:

الإشكالات المنهجية في تعاطي الدراسات الاستشراقية مع السيرة النبوية

–مقاربة منهجية–

Title of the intervention: Methodological Problems in Orientalist Studies on the Biography of the Prophet
A Methodological Approach

من تنظيم: كلية الآداب والحضارة الإسلامية

الملخص

حضيت السيرة النبوية باهتمام بالغ من قبل المستشرقين الذين تعاملوا مع أحداثها ووقائعها من متغيرات عديدة امتزج فيها العقدي بالنفسي بالمعرفي مما أدى إلى ظهور نتاجات فكرية إستشراقية أبانت عن قصور تجاربها السابقة في تعاطيها مع السيرة النبوية.

ولقد تبنت الدراسات الاستشراقية المعاصرة الطرح المعرفي الذي دعى إلى التخلي عن الأطروحات التقليدية للعصور الوسطى في محاولة منها للتعامل مع السيرة النبوية بمنهجية نقدية أكثر موضوعية، حيث سعى إلى فحص المصادر الإسلامية باستخدام أدوات البحث الغربي التي تعتمد على الشك والتحليل النقدي وفق المعايير العلمية الحديثة متجاهلين طبيعة الديني الإسلامي الممانعة لمسالة الفصل بين الديني والدنيوي أو بين الوحي والعقل الأمر الذي نتج عنه العديد من الأخطاء والإشكالات المنهجية

Abstract

The Prophet's biography has received great attention from Orientalists, who have dealt with its events and facts from many variables, mixing the ideological, psychological and cognitive, which led to the emergence of Orientalist intellectual products that revealed the shortcomings of their previous experiences in dealing with the Prophet's biography.

Contemporary Orientalist studies adopted the epistemological approach that called for abandoning the traditional medieval theses in an attempt to deal with the biography of the Prophet with a more objective critical methodology. They sought to examine Islamic sources using Western research tools that rely on scepticism and critical analysis according to modern scientific standards, ignoring the nature of Islamic religion, which is opposed to the separation between the religious and the secular or between revelation and reason, which resulted in many methodological errors and issues.

مقدمة:

إن اهتمام الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية وموروثها الثقافي ينبع في الواقع من متغيرات عديدة امتزج فيها العقدي بالنفسي بالمعرفي. ولقد تبنت الدراسات الاستشراقية المعاصرة الطرح المعرفي في محاولة منها للتعامل مع السيرة النبوية بمنهجية نقدية أكثر موضوعية كان الهدف منها في الغرب التحقق من صدق الكليات الدينية.

وسنحاول في الورقة البحثية التعرف على بعض النماذج الإستشراقية التي تعاملت مع وقائع السيرة النبوية لمناقشة الإشكالات المنهجية وذلك من خلال الرؤية الموضوعية لمضامين ودلالات الخطاب الاستشراقي.

وتكمن أهمية هذه الورقة في بيان قصور المناهج الغربية في محاولاتها إخضاع فهمها للسيرة النبوية من خلال تجربة العصور الوسطى المسيحية. ويمكن تقسيم هذه الورقة البحثية إلى محورين اثنين:

المحور الأول: تفكيك وحدات العنوان وضبط مصطلحاته الدلالية

المحور الثاني: مناهج المستشرقين في دراسة السيرة النبوية

المحور الثالث: مظاهر التحيز في المقاربة الاستشراقية

المحور الأول: تفكيك وحدات العنوان وضبط مصطلحاته الدلالية

أولا: تعريف السيرة النبوية:

السيرة لغة: هي السنة أو الطريقة أو الحالة التي يكون الشيء عليها، قال تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ [طه :21] أي حالتها التي كانت عليها.

أما معناها الاصطلاحي: فيقصد بها ذكر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال والتقريرات –حقيقة أو حكما– والصفات الخُلقية والخَلقية حتى الحركات والسكنات يقظة أو مناما؛ إلا أن مصنفو السير ضموا فترة ما قبل ولادته لارتباطها بالميلاد الشريف ولإلقاء الضوء على حالة الأرض عامة قبل مولده، وحالة العرب خاصة مما يفيد في دراستها وفهمها.

تعريف السيرة في الدراسات الاستشراقية: لا تعتبر السيرة عند المستشرقين مصدرا تاريخيا صحيحا، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعا طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق»[1]

ثانيا: تعريف الاستشراق:

الاستشراق هو الوسيلة التي مكنت الغرب من قراءة ماضي شعوب الشرق عامة، وماضي الشعوب العربية والإسلامية خاصة. والعاملان المهمان في هذه العملية هما الشرق موضوع التأمل والغرب صاحب القراءة. وهو حركة فكرية قديمة، كان يقصد بها في العصور الوسطى دراسة اللغة العربية والإسلام، ثم تغير مفهومه خاصة بعد ظهور النزعة الاستعمارية في القرن التاسع عشر للميلاد فأصبح يطلق على كل معرفة تتعلق بالشرق من حيث ديانته وعاداته وحضارته وتقاليده.

ولم يُعْترف بكلمة (الاستشراق) كمصطلح علمي إلا في سنة 1799 من قبل كل من فرنسا، إنجلترا، وفي سنة 1838م تم إدخالها إلى معجم الأكاديمية الفرنسية[2]، وللاستشراق عدة مفاهيم مختلفة.

1-المفهوم الأكاديمي

وهو المفهوم السائد عند علماء الغرب، وجاء تعريف كلمة الاستشراق في القاموس الفرنسي بأنه: «دراسة الشرق وشعوبه وحضارتهم»[3].

أما المستشرق الإيطالي أغناطيوس جودي فيرى بأن الاستشراق: «هو تعاطي دراسة الحضارات القديمة، والتمكن من تقدير العوامل المختلفة التي أثرت في تكوين تمدن القرون الوسطى والنهضة الحديثة»[4].

2-المفهوم العرقي:

---

[1]-طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط3، دار العلم للملايين، 1978، مج1، ص154.

[2]-أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وآثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، (1418هـ-1998م)، ص26.

-Maxime Rodinson, La fascination de l'Islam, Paris, F.Maspero, 1980, P81.

[3]-Le petit Robert , Op.Cit, P1323 .

[4]-محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، دط، مصر، دار الفكر العربي، 1413هـ-1993م، ص145.

الاستشراق أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب[5].

3-المفهوم الاستعماري:

يعتبر إدوارد سعيد من أوائل الباحثين الذين عرفوا الاستشراق من خلال ظاهرة الاستعمار، إذ يقول: «الاستشراق يتضمن الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر للميلاد وأوائل القرن العشرين، أو هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق»[6].

ثالثا: تعريف المنهج:

1-التعريف اللغوي:

كلمة "منهج" مأخوذة من نَهَجَ، طريق نَهْجٌ، أي بيّن واضح، وأنهج الطريق، وَضُحَ واستبان، وصار نهجا وَاضِحًا، والمنهاج يعني الطريق الواضح[7].

وقد فسر ابن كثير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [8] بالسبيل والسنة، أي الطريقة[9].

ولذلك كثيرا ما يعبر عن المنهج بالطريقة فيقال: مناهج البحث أو طرق البحث التي تؤدي إلى الغرض المنشود من الدراسة[10].

2-التعريف الاصطلاحي:

كلمة منهج هي ترجمة لكلمة (méthode) الأجنبية، ولقد اختلف العلماء في تحديد مفهومها، فقد عرف "ديكارت"[11] (Descartes, René) المنهج على أنه مجموعة من القواعد التي يجب على

---

[5]-محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، مرجع سابق، ص145.

[6]-إدوارد سعيد، مرجع سابق، ص65.

[7]-ابن منظور: لسان العرب، مادة نهج، ج6، ص4554.

-ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج5، ص361.

[8]-سورة المائدة، الآية: 48.

[9]-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص76.

[10]-محمد زيان عمر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته، ط4، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م، ص48.

العقل أن يتقيد بها لأجل الوصول إلى اليقين، وحددها بأربع هي: «قاعدة البداهة، قاعدة التحليل، قاعدة التركيب، وقاعدة الإحصاء والاستقراء، وهي قواعد وثيقة الصلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن تؤخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها، دون أن تضع في جهود غير نافعة، بل وهي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج»[12].

وعرّفه "عبد الرحمن بدوي" من خلال تمييزه بين نوعين من المناهج فقال: «المنهج هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين»[13].

المحور الثاني: مناهج المستشرقين في دراسة السيرة النبوية

طبق المستشرقون في دراستهم للسيرة النبوية مناهج عديدة يأتي في مقدمتها كل من منهج النقد التاريخي والمنهج الفيلولوجي .

أولا: منهج النقد التاريخي

وتعتبر الدراسة التي قام بها اسبينوزا سنة 1678م رائدة في هذا الميدان من خلال مؤلفه "الرسائل اللاهوتية" الذي حاول فيه تقييم الدين اليهودي تقييما تاريخيا[14]، ثم جاء بعده الفرنسي "جان ستروك" سنة 1753، بكتاب توصل فيه إلى أن كاتب "الأسفار الخمسة" المنسوبة إلى موسى ، قد اعتمد في تأليفه لسفر التكوين على مؤلفات سابقة، "ويليه "فاتكر" سنة 1835م بكتاب توصل فيه إلى وضع الأساس العلمي لتقييم الدين اليهودي[15].

---

[11]-ديكارت (1596-1650): من كبار الفلاسفة الفرنسيين عمل على تخليص الفلسفة من سلطة رجال الدين والسياسة والتفكير من سلطة المنطق الأرسطي والمدرسي، اشتهر بمنهجه المعرفي الجديد وبتوسعه في دليل الكمال على وجود الله، من أهم كتبه: "مقالة الطريقة"، "القواعد لقيادة الفكر"، "التأملات". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص289).

[12]-رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، تر: محمود محمد الخضيري، ط3، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص9.

[13]-عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1963، ص4.

[14]-محمد توفيق حسين: مقال سابق، ص242.

[15]-المقال نفسه، ص242.

ويعتبر يوليوس فلهاوزن[16] (Welhausen Yulios) من أبرز الباحثين في مجال نقد الأديان، وقد تخصص في نقد العهد القديم (التوراة)، وبالطبع لم يستثن الدين الإسلامي من الخضوع لموجة النقد التاريخي للأديان، خاصة وأن الدراسات النقدية المتعلقة باليهودية والمسيحية قد حققت نتائج هامة ساهمت في صياغة تصور جديد لكل من الديانتين، وذلك بعد اكتشاف مخطوطات البحر الميّت التي يعود تاريخها إلى السنة المائة قبل الميلاد. وقد أثار هذا الاكتشاف العديد من النقاش والجدل حول صحة الأناجيل وحقيقة المسيح، إذ يقول الدكتور و.ف. ألبرايت، وهو عمدة في علم آثار الإنجيل: «... تهاني على اكتشاف أعظم مخطوط في العصر الحديث فوق هضبة بجوار البحر الميت... إنه لا يوجد أدنى شك في العالم حول صحة هذا المخطوط، وسوف تحدث هذه الأوراق ثورة في فكرتنا عن المسيحية»[17]. وقال القس أ. باول ديفز رئيس كهنة كل القديسين في واشنطن في كتابه "مخطوطات البحر الميت": «إن مخطوطات البحر الميت –وهي أعظم الاكتشاف أهمية منذ قرون عديدة– قد تُغَيِّرُ الفهم التقليدي للإنجيل»[18].

أما القس شارلز فرنسيس بوتر فقد قال في كتابه "السنون المفقودة من عيسى تكشف": «من العسير العثور على كتاب في العهد القديم لا يحتاج إلى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات البحر الميت، وكذلك ليس هناك كتاب في العهد الجديد لا يحتاج إلى تفسير شامل للآيات الأساسية التي تقوم عليها الشريعة»[19].

وفي القرن التاسع عشر، طبق المستشرقون المنهج الغربي (منهج النقد التاريخي) على الدراسات الإسلامية المخالفة له من حيث التصور والمنهج. لقد استخدم المستشرقون –باعتبارهم مؤرخين غربيين تخصصوا في دراسة تاريخ وحضارة المسلمين– طرقا ومناهج غربية وضعية ترفض التعامل مع الحقائق الغيبية لأنها أمور ما ورائية لا تخضع لمنطق التجربة والملاحظة.

---

[16]–يوليوس فيلهاوزن (1844–1918): مستشرق ألماني، تهتم بدراسة الأديان بدءا بالتوراة، من آثاره: "تاريخ اليهود"، "محمد في المدينة"، "التمهيد للتاريخ الإسلامي" في ستة أجزاء. (نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج2، ص724–725).

[17]–إبراهيم خليل أحمد: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، ط5، مصر، دار الجيل للطباعة، 1983، ص139.

[18]–المرجع نفسه، ص140.

[19]–المرجع نفسه، ص140–141.

ولكي تتفق مناهج بحثهم مع موضوع البحث قاموا بالتصرف في أهم عنصر من عناصر المبحوث، والمتمثل في نفي العنصر الإلهي عن نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم–مع أن المعمول به علميا ومنهجيا أن الباحث يقوم بالتغيير في طريقة أو منهج البحث، نتيجة لاكتشافه للمزيد من الأدلة مع قربه لنهاية البحث، أو نتيجة لحصوله على مادة علمية جديدة لها علاقة بالبحث، وأحيانا يضطر الباحث إلى تقسيم قضيته إلى أجزاء حتى تسهل عليه الدراسة.

ثانيا:–المنهج الفيلولوجي

ظهر المنهج الفيلولوجي نتيجة لتخصص بعض المستشرقين في عدد من اللغات القديمة: "ويتكون هذا المصطلح – الذي يقابل فقه اللغة عند الغربيين– من لفظين إغريقيين أحدهما Philos بمعنى الصديق، والثاني Logos بمعنى الخطبة أو الكلام؛ فكأن واضع التسمية لاحظ أن فقه اللغة يقوم على حب الكلام للتعمق في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه"[20].

ويعرّف بأنه " دراسة لغة من اللغات من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها، وقد يُطلق ويراد به أيضاً دراسة الحياة العقليّة ومنتجاتها على العموم في أمّة ما، أو طائفة من الأمم"[21].

وإذا كان مصطلح الفِيلُولُوجِيا في عرف الاستشراق يدل على فقه اللغة [22]، "فإن هناك ثمّة تباين بين مدلول فقه اللغة عند علماء اللغة العربيّة، وبين مدلوله عند المستشرقين، فإنه عند علماء العربيّة علم تطبيقي يتناول جميع المباحث التي تمتُّ إلى اللغة بسبب سواء أكان ذلك في أصولها أم في فروعها أم في تاريخها. وأمّا المستشرقون فإن (فقه اللغة) الذي يسمونه Philology مقتصر عندهم على المباحث

---

[20] دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1970، ص20.

[21] علم اللغة، علي وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة التاسعة، 2004، ص14

[22] الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، هاشم صالح، دار الساقي، مقالة الدراسات العربية والإسلاميّة في أوروبا لمكسيم رودنسون، بيروت، الطبعة الأولى، 1994، ص48.

التاريخية التي تبين أصل اللغة ونشأتها وتطورها، والعوامل التي أدت إلى ارتقائها ونهوضها، فهم بذلك جعلوا منه علماً نظرياً بعيداً عن التطبيق"[23].

وقد جرى تطبيق المنهج الفيلولوجي في البداية على النصوص الإغريقية اللاتينية القديمة حيث "بدأ الاعتناء بالنص والوثيقة؛ لأنهما الشاهد الوحيد على الغائب من هذه الأمم، فأصبح – قبل التسليم بما ورد فيهما من شهادات – لا بدّ من التأكد أولاً من صحة المعلومات الواردة فيهما كالتأكد من صحة الوثيقة نفسها، ومن صحة نسبتها إلى صاحبها"[24].

ثم انتقل إلى دراسة نصوص المسيحية (العهد القديم والعهد الجديد) على اعتبار أنها "نص أدبي؛ لاشتماله على ملاحم وأساليب أدبيّة عديدة. فكان من الطبيعي أن يلجأ اللاهوتي إلى المنهجين الفِيلُولُوجِي والتاريخي اللذين تميزت بهما دراسة الكتاب المقدس أو النقد التوراتي منذ القرن السابع عشر"[25].ثم توسع ليشمل جميع الثقافات والمجتمعات الشرقية.

فالمستشرق البلجيكي لامانس[26]يعتقد أن القرآن هو الوثيقة التاريخية الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة السيرة النبوية زاعما أن كتب الحديث كلها مصادر غير موثوقة لأنها وضعت لإضفاء صفة التقديس والتمجيد للنبي —صلى الله عليه وسلم وهو في هذا لا يسوق أي دليل نقلي أو عقلي، ولا يرجع إلى مصادر أخرى عن السيرة، بل يلقي الكلام جزافا، ولا يبدو أن لديه اطلاع باحث، لذلك اظهر تخبطا كبيرا[27]

---

[23] فقه اللغة وسرّ العربيّة، عبدالملك بن محمد الثعالبي، حققه ورتبه ووضع فهرسه: مصطفى السقا وآخران، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1972، مقدمة المحققين ص ص10-11 باختصار

[24] تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكاليّة التقنين والتقديس، يوسف الكلّام، ص 24 بتصرف

[25] المرجع السابق، ص25

[26] – هنري لامانس Henri.Lammens (1279-1356هـ/1862-1937م): مستشرق بلجيكي، وراهب يسوعي، ولد في بلجيكا وجاء الى بيروت منذ صباه، وتعلم في الكلية اليسوعية في بيروت، ثم صار معلما فيها سنة (1304هـ/1886م)، ثم صار معلما للتاريخ والجغرافية في كلية اليسوعيين، وأدار مجلة المشرق بعد وفاة لويس شيخو، له مؤلفات كثيرة اغلبها تركز على السيرة النبوية الشريفة منها : مهد الإسلام، ومكة عشية الهجرة، ومدينة الطائف العربية عشية الهجرة، وغيرها. بدوي، موسوعة المستشرقين، ص503.

[27] – بدوي، المرجع نفسه، ص504

ويجتهد المنهج الفيلولوجي برد كل شيء إلى أصله دون الاعتماد على المصادر الأصلية وهذا خلل منهجي يؤدي إلى التحامل على الوقائع التاريخية والابتعاد عن المضمون العلمي كما في دراسات بعض المستشرقين الذين اعتمدوا على واقعة الالتقاء بين النبي –صلى الله عليه وسلم والراهب يحيرا ليثبتوا أن أصل القرآن مرده إلى الديانتين المسيحية واليهودية

الأصل الأول: الراهب بحيرا

تذكر الروايات أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- لما بلغ السن الثانية عشرة اصطحبه عمه أبو طالب في تجارة إلى الشام، حتى وصل بصرى –وهي معدودة من الشام وقصبة كوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان – وكان في هذا البلد راهب وعرف ببحيرا واسمه جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم وأكرمهم بالضيافة، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بصفته، فقال وهو آخذ بيده هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال أبو طالب: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا و خر ساجدا، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل بحيرا أبا طالب أن يرده ولا يقدم به إلى الشام خوفا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع غلمانه إلى مكة [28].

يقول المستشرق ج. إيداك الذي يذكر: «واتفق محمد في أثناء رحلاته أن يتعرف شيئا قليلا من عقائد اليهود والنصارى، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا»[29].

ويقول المستشرق جوستاف لوبون: «وتقول القصة أن محمدا سافر مرة مع عمه إلى سورية فتعرف في بصرى براهب نسطوري في دير نصراني، فتلقى منه علم التوراة... وتهيأ له بذلك السفر إلى سورية والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذي أطلعه سابقا على التوراة»[30].

---

[28] – ابن هشام: مصدر سابق، ج1، ص180-182

[29] – عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة.[29]

فلو نظرنا إلى هذه الرواية بعين الباحث المنصف فإنه يدرك بأن هذه الرواية لا تتضمن أية دلالة أو إشارة إلى أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قد استمد معلوماته الدينية من بحيرا الراهب وذلك للأسباب الآتية:

1– اتفق رواة الحديث على أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– حينما ذهب مع عمه إلى الشام كان سنه يومئذ اثني عشرة سنة، فكيف يستسيغ العقل البشري بأن يحدث الراهب بحيرا طفلا في هذا السن في أمر من أعظم الأمور وهو أمر العقيدة والدين؟ وكيف استوعب عقله الصغير علم التوراة كلها دفعة واحدة؟.

2– إن النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– كان برفقة عمه ورجال القافلة، ولو حدث أمر كهذا لما خفي ذلك على أفراد القافلة وبكان خبر ه قد وصل إلى مكة وعم المنطقة كلها، ولكانت قريش أول من ينازع النبي–صلى الله عليه وسلم– في هذا الأمر وتتهمه بالأخذ عن بحيرا الراهب قبل المستشرقين بمئات السنين.

3–إن تاريخ السيرة العطرة تؤكد لنا أن الرسول–صلى الله عليه وسلم– لم يسافر في حياته إلا مرتين: الأولى في طفولته برفقة عمه أبو طالب؛ والسفر الثاني في شبابه برفقة ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في تجارة لها إلى الشام، وكان سنه يومئذ خمسا وعشرين سنة، ومن غير المعقول أن يكون هناك لقاء تم مع الراهب بحيرا في هذه المرة، لأنه يكون قد مات وأضحت عظامه في الثرى رميما، إذ أن الفارق بين الرحلة الأولى والثانية ثلاثة عشرة سنة.

إلا أن هناك من الباحثين من يعتقد بأن الرسول– صلى الله عليه وسلم– حينما عاد إلى الشام للمرة الثانية واستراح في ظل شجرة قريبا من صومعة لراهب يقال له انسطورا فعرف هذا الراهب بفراسته بعض أمارات النبوة في محمد –صلى الله عليه وسلم– قال لميسرة: « ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي...!!»[31] .

---

[30] – جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص.130.

[31] – محمد أحمد المسير: الرسول والوحي، ص.

وسواء تم اللقاء الثاني أو لم يتم فإن المؤكد أن الرسول–صلى الله عليه وسلم– لم يكن بمفرده، كما أن أياما معدودة قضاها بالشام يستحيل أن تكون كافية لأن يحفظ النبي —صلى الله عليه وسلم–علم التوراة كلها.

4–قبل المستشرقون جزءا من قصة بحيرا وهو التقاؤه مع بالرسول — صلى الله عليه وسلم– لينسجوا منه الدليل على مسألة الأخذ و التلقي من الغير، وأغفلوا الجزء الآخر والمتعلق بمعرفة بحيرا لصفات النبوة في شخص محمد صلى الله عليه وسلم– الأمر الذي جعل بحيرا يطلب من عمه أبي طالب الرجوع به إلى مكة مخافة أن يراه اليهود، فلو كان غرضهم نزيها لعرضوا الحقائق كما جاءت، ثم يتناولونها بالنقد والتحليل سواء توافق ذلك مع أفكارهم الخاصة أم لم تتوافق معها، أما أن يقوموا بعملية التقطيع والبتر للحقائق، فيتقبلون جزءا ويرفضون أجزاءً أخرى فهذا ما لا يتفق ودعاويهم القاضية بالتزام المنهج العلمي.

5–إن قصة بحيرا قد ضعفها الشيخ رشيد رضا لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الاسانيد إلا رواية الترميذي وليس فيها اسم " بحيرا"، وفيها غلط في المتن وليس في شيء من تلك الروايات أنه–صلى الله عليه وسلم– سمع من بحيرا شيئا عن عقيدته أودينه[32] .

الأصل الثاني: شعر أمية بن أبي الصلت:

من بين المحاولات التي قام بها المستشرقون لنفي الاتصال الإلهي بين الله ونبيه محمد —صلى الله عليه وسلم– محاولة نسبة القرآن الكريم إلى الشعر الجاهلي كشعر أمية بن أبي الصلت[33].

وتعتبر المحاولة التي قام بها المستشرق "كليمار هوار" (Clement Houart) [34] من أبرز المحاولات في هذا المجال، حينما كتب فصلا في المجلة الآسيوية سنة 1904 يدّعي فيه اكتشافه لمصدر

---

[32] – محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ص.96.

[33]–أمية بن أبي الصلت: من ثقيف بن بكر، واسمه عبد الله بن ربيعة، شاعر عاش في الجاهلية والإسلام، كان على معرفة بالتوراة والإنجيل، فرغب عن عبادة الأوتان، ولقد عرف من الرهبان أن نبيا صوف يظهر من العرب فأخذ يتحسس أخباره، حتى إذا بعث النبي محمد تكدّر وكفر به حسدا، إذ كان يأمل أن يكون ذلك النبي، ولما أنشد رسول الله شعره قال: أمن لسانه وكفر قلبه، مات في الطائف بعد أن رثا قتل بدر من المشركين. انظر: أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ص37. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دط، مصر، ددن، 1964، ص429.

جديد للقرآن هو الشعر الجاهلي، ومما جاء فيه قوله: «...من بين شعراء العرب كان تأثير أمية بن أبي الصلت جد ملاحظ، إن أثر قصائد أمية –التي كانت محفوظة وكثيرة الترديد على لسان العرب– على الرغم من أن النبي حاربها، كان عظيما بشكل لا يحتاج إلى المقارنة»[35].

وفي موضع آخر من هذا الفصل يقول: «وأبيات قصائده (أمية بن أبي الصلت) في أغلبها الساحقة تقتصر على نظم مقاطع من الكتاب المقدس، وهذا سيمكننا —من جديد من دراسة مسألة الشعر الجاهلي على تكوين القرآن–»[36].

وليس الغرض هنا بيان تهافت هذه النسبة (نسبة القرآن إلى الشعر) بقدر ما هو محاولة نستدل بها على غلبة أهواء النفس وميولها وسيطرتها على فكر الباحث المستشرق، فعطلت عنده ملكة التفكير السليم وأعاقته عن الإدراك الصحيح. وذلك من خلال إيراد قول "طه حسين" الذي تصدى للرد على ثقة كليمان في شعر أمية وتشككه في القرآن الكريم —على الرغم مما ذهب إليه قبل هذا في مؤلفه الشعر الجاهلي–.

يقول طه حسين: «والغريب في أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله، أنهم يشكّون في صحة السيرة النبوية نفسها ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرونها مصدرا تاريخيا صحيحا، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعا طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق»[37]. وبعد هذا يضيف: «يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة، فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من هذه الأفكار دون الآخر، أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرؤا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات»[38].

المحور الثالث: مظاهر التحيز في المقاربة الاستشراقية للسيرة النبوية

---

[34]–كليمان هوار: (1854–1927م)، مستشرق فرنسي تخرج من مدرسة اللغات الشرقية، وعمل لدى وزارة الخارجية الفرنسية، بعدها تفرغ للدراسات المتعلقة بالإسلام من آثاره: "

[35]–كليمان هوار: مصدر جديد للقرآن، ص133. مقلا عن: عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس: مرجع سابق، ص86.

[36]–المرجع نفسه.

[37]–طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط3، دار العلم للملايين، 1978، مج1، ص154.

[38]–المرجع نفسه.

وتتمثل هذه المظاهر في:

1-التصرف في نصوص الوثائق التاريخية بما يخدم ميول الباحث كما حدث في حديث بدء الوحي:

تكلم المستشرق وات[39] في تابه "محمد في مكة" عن كيفية بدء الوحي تحت عنوان رسالة النبي، وقد اعتمد على رواية الزهري حيث يقول: «وهذه الرواية ليست متصلة كرواية بن هشام بل هي تجمع مقاطع وصلت إلى علم الزهري، والنص كما وصل إلينا لا يحتوي على تقسيمات وقد أدخلنا بعض التقسيمات هنا للتسهيل.

أ- سمعت النعمان بن راشد يحدث عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان أول ما ابتدئ به رسول الله- —صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، كانت تجيء مثل فلق الصبح.

ب- ثم حبب إليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق فأتاه فقال: يا محمد أنت رسول الله.

جـ-قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم- فجثوت بركبتي وأنا قائم زحفت ترجف بوادري ثم دخلت على خديجة فقلت: زملوني، زملوني حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله.

د- قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله.

هـ- ثم قال: اقرأ، فقلت ما اقرأ؟ قال: فأخذني فغطني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد م قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت.

---

[39] - وات: مستشرق إنجليزي، اهتم بتاريخ الجزيرة العربية وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم- بصفة خاصة، اشتهر بكتابيه "محمد في مكة"، "محمد في المدينة". (نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج2، ص32).

و–فأتيت خديجة فقلت لقد أشفقت على نفسي فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، فقالت: اسمع من ابن أخيك فقال: هذا الناموس الذي نزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك قلت: امخرجي هم؟ قال: نعم إنه لم يجيء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ولئن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا.

ز–ثم كان أول ما نزل عليه من القرآن بعد "اقرأ" ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ. فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾[40]، ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾[41] ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[42].

ح– عن الزهري قال: فتر الوحي عن رسول الله فترة فحزن حزنا شديدا جعل يغدو إلى رؤوس شواهق الجبال ليتردى منها فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول: « إنك نبي الله فيسكن لذلك جأشه، وترجع إليه نفسه».

ط– فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك فيقول: فبينما أنا أمشي يوما إذ رأيت الملك الذي كان بحراء على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رعبا فرجعت إلى خديجة فقلت: زملوني.
ي–فزملناه –أي دثرناه– فأنزل الله عز وجل: يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر[43].

ق–قال الزهري: فكان أول شيء نزل عليه قوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [44] حتى بلغ: ما لم يعلم. و يروي الزهري، ويعرف بابن شهاب أيضا رواية أخرى: «أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «قال رسول الله وهو يحدث عن فترة الوحي، بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض »[45].

---

[40] –سورة القلم، الآية: 1–5.

[41] –سورة المدثر، الآية: 1–2.

[42] –سورة الضحى، الآية:1–2. الطبري، دار المعارف، 1961، ج2، ص.298.

[43] –سورة المدثر، الآية: 1–2–3. المرجع نفسه، ص.305–306.

[44] –سورة العلق، الآية:1–2.

[45] –رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي. باب: كيف بدء الوحي، ج1، ص7.

تتحاشى هذه الرواية تعبير الراوي من (ي) إلى (ق) بقولها "دثروني"، وهذا مهم، لأنه طابع مميز للحديث المروي عن جابر والقائل بأن المدثر (السورة رقم 74) كانت أول الوحي[46].

ولربما كانت المقاطع من (أ) إلى (ح) متتابعة عند الزهري ولكنها ليست جميعها مروية عن عائشة، ولكن قطع بن إسحاق لرواية عائشة بعد المقطع الأول في (ب) سببه تفضيل ابن إسحاق لروايات أخرى عند هذه النقطة ولن نفوز بشيء إذا ناقشنا الإسناد ولهذا أقترح اعتبار شهادة المقاطع الداخلية ودراسة ما يمكن تسميته "معالم" الروايات المختلفة.

أ-مناقشة رواية الزهري كما أوردها الكاتب: ذكر وات بأن تقسيمه لرواية الزهري إلى مقاطع كان الدافع إليه هو التسهيل ليس إلا، ولكن أثناء مناقشتي لهذه الرواية تبين أن الأمر أكبر من ذلك بكثير كما سيأتي:

-إن المقطع (أ) في الرواية التي ذكرها وات وهو: «كان أول ما ابتدئ به رسول الله —صلى الله عليه وسلم-من الوحي هو الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح». يقابل المقطع التالي -إن جاز لي التقسيم- في رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم- الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصيح».

-المقطع (ب) من رواية الزهري: «ثم حبب إليا الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى فاجأه الخق فأتاه فقال يا محمد أنت رسول الله».

-المقطع (2)من رواية البخاري: « ثم حبب إليا الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله فيتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء».

-المقطع (ج) من رواية الزهري: « فجثوت على ركبتي وأنا قائم ثم زحفت ترجف بواري ثم دخلت على خديجة فقلت زملزني، زملوني، حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله».

-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب: بدء الوحي، ج1، ص98.

[46] -المرجع نفسه ج1، ص1147وما بعدها.

– المقطع (3) من رواية البخاري: « فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغمني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فغطني الثالثة ثم أرساني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم، فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملزني، زملوني حتى ذهب عنه الروع ».

إلى غاية الفقرة (ج) لا يوجد اختلاف من حيث تسلسل الأحداث بين رواية الزهري التي أوردها وات ورواية البخاري.

– المقطع (د) من رواية الزهري: «قال لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله».

– المقطع (4) من رواية البخاري: « فقال لخديجة ما لي، وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق ».

– المقطع (هـ)من رواية الزهري: «ثم قال: اقرأ وقلت: ما أقرأ ؟ قال: فأخذني فغتني (فغطني) ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت، فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر فالله لا يخزيك الله أبدا، و والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد قالت: اسمع من ابن أخيك....نصرا مؤزرا».

–المقطع (5) من رواية البخاري: «فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل....نصرا مؤزرا».

إن ظهور جبريل ومطالبة النبي بالقراءة جاء في رواية البخاري في المقطع الثالث أما الرواية التي ذكرها وات فإن مجيء جبريل للنبي ومطالبته بالقراءة جاء في المقطع الخامس (هـ) ووضع مكانه في المقطع (جـ) (3) وهو المقطع الذي يتحدث عن حالة الخوف والفزع التي أصابت النبي بعد رؤيته لجبريل ثم يليه المقطع (د) والذي يتحدث عن فترة انقطاع الوحي فالنبي حسب الترتيب الذي وضعه وات خاف وفزع

حينما ظهر له جبريل (د) ثم فكر بأن يلقي بنفسه من أعالي الجبل حين انقطاع الوحي (د) بعد هذا تأتي الفقرة (هـ) والتي تتحدث عن أول نزول القرآن الكريم.

كان ينبغي على وات أن يلتزم بالتسلسل الحقيقي للرواية وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم- فاجأه الملك في الغار فخاف وفزع وفي هذا المقطع حصل أول نزول للقرآن الكريم المتمثل في أوائل سورة العلق بعد هذا يأتي المقطع الذي يتحدث عن حيرة وقلق النبي بسبب انقطاع الوحي أما أن يقوم بالتصرف في نص الحديث فيقدم ويؤخر كيفما يشاء فهذا مما لا يتفق مع أسلوب الباحث المؤرخ الذي يفترض أن ينصب تفسيره حول الظروف التي صيغت فيها هذه الوثيقة التاريخية عند وجودها لا أن يقوم بالتصرف في نص الوثيقة كيفما يشاء

2-إصدار الأحكام الجزافية:

أمية النبي صلى الله عليه وسلم:

افترض وات عدم أمية الرسول- صلى الله عليه وسلم- فيقول: «إن المقصود من المقطع (هـ) "ثم قال: اقرأ قلت: ما اقرأ؟" هو معرفة محمد للقراءة والكتابة ويعلل ذلك بأن قول محمد (ما اقرأ) في رده على قول الملك "اقرأ" تعني "لا أستطيع القراءة" أو التلاوة، وفي رواية "ما أنا بقارئ" وفي التمييز عند بن هشام " ما اقرأ" و" ماذا اقرأ"، حيث التعبير الثاني لا يمكن أن يعني إلا "ماذا اقرأ" وهذا هو المعنى الطبيعي لقوله "ما اقرأ"، ثم يضيف بأن العلة في تمسك المسلمين بمسألة أمية الرسول محمد هو إضفاء صفة المعجزة على القرآن الكريم، إذ يقول: «ويبدو من المؤكد تقريبا أن المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمة ليجدوا أساسا للعقيدة التي تريد أن محمد لم يكن يعرف الكتابة، وهذا عنصر رئيسي للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة»[47].

ونرد على وات بأن أمية الرسول ليست هي الإعجاز الفريد للقرآن بل هي عنصر مؤيد لحقيقة القرآن المعجزة، وحتى لو افترضنا أن النبي كان يعرف القراءة والكتابة، فهذا لا يتناقض مع الإعجاز القرآني، لأن معجزة الرسول –صلى الله عليه وسلم- قد امتازت عن غيرها من معجزات الأنبياء بعدة مميزات يذكرها ابن

[47] –مونغمري: محمد في مكة، ص126.

خلدون قائلا: «فاعلم أن معظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا –عليه الصلاة والسلام– فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، ويأتي بالمعجزة ...فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل له كسائر المعجزات مع الوحي...فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه... وهذا المعنى قوله: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحي إليه، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[48].

يشير إلى أن المعجز من كان بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثر المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة »[49].

إن ما ادعاه وات بخصوص نفي الأمية عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– دعوى غير صحيحة، وينقضها الدليل التاريخي، أما عبارة "ما أنا بقارئ" فقد فسرها بن حجر قائلا: "ما أنا فيه" أي ما أحسن القراءة، و(ما) هنا نافية، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخول الياء. فلما قال ذلك ثلاثا قيل له: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" أي لا تقرأه بقوتك ولا بمعرفتك ولكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم وغمز الشيطان في الصغر، فالرسول – عليه الصلاة والسلام– ينفي عن نفسه القراءة[50].

وإن المستشرقين عادة ما يلجأون إلى هذه التهمة ليأسسوا عليها نظريتهم القاضية باستمداد الرسول لمادة القرآن من الديانات السابقة وخصوصا اليهودية والمسيحية، فيما أن الرسول يحسن القراءة والكتابة فهذا يعني أنه طالع كتب الأولين فحصل هذه العلوم والمعارف، ومن أمثال من قال بذلك كايتاني الذي يرى أنه من غير المعقول ألا يكون النبي قارئا كاتبا في حين قد احتوى القرآن على معارف كتابية كثيرة، وكان كثير من فتيان قريش من أمثاله وفي مثل سنه يقرؤون ويكتبون بل قد رأينا بعضهم يزعم أنه كان يكتب ويقرأ وإنما كان يحاول كتمان ذلك عن الناس عن أصدقائه[51].

---

[48] –البخاري، مرجع سابق، ص20.

[49] –ابن خلدون: المقدمة، ص91.

[50] –أحمد علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، ط1، القاهرة، دار الرياض للتراث، (1407هـ-1986م)، ج1، ص32-33.

[51] –محمد دروزة: سيرة الرسول، بيروت، المكتبة العصرية، ج1، ص307.

والمستشرق بلاشير[52] الذي يقول في كتابه" مدخل إلى القرآن": « إننا نرى وجود قرائن على أن محمد كان يعرف القراءة والكتابة، فظلا عن ذلك فلدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأن هناك رجالا آخرين من أسرته، مثل عمه أبي طالب وابن عمه على كانت لديهم هذه المعرفة »[53].

يقول تعالى: "وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" [54]، فلو كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يعرف القراءة والكتابة لما خفي أمره على الناس لا سيما وأنه نشأ يتيما، وانتقل بين العديد من البيوت « والعادة الجارية بأن اليتيم الذي تتلقفه أيد كثيرة، وتتعدد عليه الولايات لا يخفى من أمره شيء، وتظهر أخلاقياته وتتضح سلوكيات، فلا شيء مستور منها»[55].

ثم لو كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– قارئا كاتبا لكان كفار قريش أول من جادله و نازعه في هذا الأمر، قال تعالى: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" [56].

قال المفسرون: إن عبارة "تملى عليه" وعبارة "اكتتبها" بمعنى استكتبها، تفيد بإن الكفار كانوا يتهمونه بأنه كان يسمع إلى من يتلو عليه قصص الأمم السابقة حتى يحفظها، ثم يدعي أنها وحي من الله، وهذا يؤيد انه كان لا يقرأ ولا يكتب، وأن زعماء مكة كانوا يعرفون ذلك.

3– تجاهل الحقائق التاريخية:

يرى المستشرقون أن أتباع النبي الذين التفوا حول دعوته الدينية الجديدة، كانوا من الفقراء والضعفاء الذين كانوا يئنون تحت وطأة النظام القديم الجائر، متجاهلين حقيقة تاريخية هامة تفيد بوجود عناصر كانت تحتل المرتبة الأولى في السلم الاجتماعي للمجتمع العربي، بما كانت تتمتع به من نفوذ وسيادة وثراء، ومع

---

[52] ريجير بلاشير (1900-1973): مستشرق فرنسي معاصر، تخرج من كلية الآداب بالجزائر سنة 1922، شغل منصب مدير لمعهد الدراسات المغربية العليا، وفي عام 1936 حصل على درجة الدكتوراه، أهم كتبه: "معضلة القرآن"، "مدخل إلى القرآن". (نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج1، ص309).

[53]–Blachèr. R : Introduction au coran, P50.

[54] –سورة العنكبوت، الآية: 48.

[55] –عبد الكريم الخطيب: النبي محمد، ص.57.

[56] –سورة الفرقان، الآية: 5.

ذلك تخلت عن هذه المكانة الاجتماعية المرموقة، واستجابة لدعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– كعثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف، وأبو بكر الصديق، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ، وسنقف بشيء من التفصيل عند البعض منهم.

1–عبد الرحمن بن عوف

عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث القرشي، كان يدعى في الجاهلية باسم عبد عمرو وقيل عبد الكعبة، فلما جاء الرسول سماه عبد الرحمن.

من كبار التجار بمكة، وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، انفق جل ماله في سبيل الله، روى معمر عن الزهري «أن عبد الرحمن بن عوف حينما أسلم تصدق بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين آلفا، ثم تصدق بأربعين ألفا دينار، حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله، واعتق في يوم واحد ثلاثين عبدا، كما تذكر الروايات أن عبد الرحمن بن عوف تزوج فأتى النبي–صلى الله عليه وسلم– فقال: بارك الله لك أَوْلِمْ ولو بشاة، قال: فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البُر وتحمل الدقيق والطعام، قال: فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة فقالت عائشة ما هذه الرجة، فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف، سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام، فقالت عائشة —رضي الله عنها– سمعت النبي–صلى الله عليه وسلم– يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوا»[57].

2–عثمان بن عفان

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية القرشي، ذو النورين، وأحد المبشرين بالجنة، كان أبوه صاحب تجارة وقد مات في إحدى سفرياته إلى الشام تاركا لولده ثراء حسنا، وعلى درب أبيه وقومه في التجارة سار عثمان بن عفان فحقق من رواء ذلك مالا كثيرا.

---

[57]–ابن سعد: الطبقات الكبرى، دط، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، دت، مج3، مج3، ص124.

–ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دت، مج3، ص313.

وحينما سمع بدعوة النبي محمد–صلى الله عليه وسلم– لم يتردد في الإيمان بها فكان من السابقين للإسلام، وتقول الروايات أن أبا بكر دعا عثمان إلى الإسلام فمال قلبه ثم صحبه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–الذي وعظه ودعاه للإسلام فأسلم، وكان يقول إني لرابع أربعة في الإسلام[58].

3–أبو بكر الصديق

عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب القرشي التيمي، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فسماه الرسول عبد الله، من أوائل المؤمنين بالدعوة الإسلامية، وصاحب رسول الله في الغار وفي الهجرة.

وهو من رؤساء مكة وأشرافها، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية (الأشناق أي الديات)، وكعادة سادة مكة عمل أبو بكر في التجارة، وعندما أسلم أنفق جل ماله في سبيل الله، فقد ذكر الرواة أنه حينما أسلم كان لديه أربعون ألف درهم أنفقها في سبيل الله عند هجرته إلى المدينة، ولم يبق منها سوى خمسة آلاف درهم، وكان يشتري العبيد الذين أُوذُوا وعُذبوا بسبب إيمانهم بدعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم يعتقهم فيصبحوا أحرارا.

أبو بكر الصديق الذي لم يتردد في تصديق الرسول –صلى الله عليه وسلم–حينما أخبر الناس بأن الله أسرا به من ليلته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في حين كذبته قريش، وراوض الشك بعض المسلمين في تصديقه، وعنه قال الرسول: «لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن إخاء وصحبة حتى يجمعنا الله عنده»[59].

4– الاعتماد على مؤلفات أسلافهم من المستشرقين

تستدعي الموضوعية في هذه المقاربة أن يستمد المستشرق مادة بحثه في السيرة النبوية من مصادرها الموثوق بها ويستقيها من منابعها الأصلية كالقرآن الكريم وكتب الصحاح وتاريخ الطبري وسيرة ابن هشام

---

[58]–ابن سعد: المصدر السابق، مج3، ص53.

–ابن الأثير: المصدر السابق، مج3، ص376–377.

[59]–ابن سعد: المصدر السابق، مج3، ص169.

–ابن الأثير: المصدر السابق، مج3، ص205–206.

وطبقات ابن سعد، بالإضافة إلى الكتب المعتمدة عند جمهور المسلمين، ثم لا بأس بعد ذلك أن يستعين بما كتبه أسلافه من المستشرقين حول الموضوع، فذلك يرفع من القيمة العلمية للبحث ويوجهه لخدمة الغرض العلمي المتمثل في البحث والاستقصاء عن الحقيقة مهما كانت النتيجة المتوصل إليها، سواء أكانت تلك النتائج موافقة لرأي الباحث وميوله أو معارضة له.

أما أن يبحث المستشرق في موضوعات الإسلام كدين وحضارة، ويتجاهل تلك المصادر الأصيلة، فهذا ما لا يتماشى ومنهجية البحث العلمي، وكمثال على ذلك نأخذ كتاب الإسلام والمسيحية للمستشرق الروسي "ألكسي جورافيسكي".

إن المتصفح لقائمة المصادر والمراجع لهذا الكتاب لا يجد ولو مصدرا واحدا من المصادر الأصلية التي تعتبر عن الرؤية الإسلامية الصحيحة من بين حوالي المائة والثلاثين كتابا (130) التي اعتمد عليها في إنجاز مؤلفه، ([60])في حين شغلت كتب أسلافه وزملائه من المستشرقين الحيز الكبير في قائمة المصادر والمراجع، أمثال المستشرق "ماسينيون" و"منتغمري وات" و"لويس غارديه" و"ألبيرت حوراني" و"جاك بيرك".

وفي الختام نقول إن السيرة النبوية العطرة تأبى الخضوع لمقولات الفكر الغربي بسبب خصوصيتها التي تستعصي على فهم الباحثين الغربيين، الذين ينطلقون في تحليل وتفسير أحداثها من أرضية فكرية لا تمتلك إمكانات التحليل العلمي الموضوعي المجرد عن الإسقاطات التاريخية والرغبات النفسية، لذلك فإن النموذج الإسلامي القديم الذي يرفضه الكثير من المستشرقين ومن تأثر بهم من المفكرين العرب والمسلمين هو الجيل الشاهد على نزول الوحي ومن ثم يكون له الامتياز في مواجهة إشكالية النفي والإثبات.

[60]– جورافيسكي أليكسي، الإسلام والمسيحية، ترجمة: خلف محمد الجراد، دط، الكويت، 1996.

قائمة المصادر والمراجع

1-طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط3، دار العلم للملايين، 1978.

2-أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وآثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، (1418هـ-1998م).

3-Maxime Rodinson, La fascination de l'Islam, Paris, F.Maspero, 1980.

4-Le petit Robert , Op.Cit, P1323 1)

5-جورافيسكي أليكسي، الإسلام والمسيحية، ترجمة: خلف محمد الجراد، دط، الكويت، 1996.

6-محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، دط، مصر، دار الفكر العربي، 1413هـ-1993م.

7-إدوارد سعيد، ، الاستشراق في: المعرفة- السلطة- الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، ط2، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984

8-ابن منظور، لسان العرب، دط، بيروت، دار الجيل، 1988

9- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دط، دب، دار الفكر، دت

10-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2.

11-محمد زيان عمر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته، ط4، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م.

12-رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، تر: محمود محمد الخضيري، ط3، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

13-عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1963.

14-إبراهيم خليل أحمد: محمد –صلى الله عليه وسلم- في التوراة والإنجيل والقرآن، ط5، مصر، دار الجيل للطباعة، 1983.

15- دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1970.

16- علم اللغة، علي وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة التاسعة، 2004.

17- الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، هاشم صالح، دار الساقي، مقالة الدراسات العربية والإسلاميّة في أوروبا لمكسيم رودنسون، بيروت، الطبعة الأولى، 1994.

18- فقه اللغة وسرّ العربيّة، عبدالملك بن محمد الثعالبي، حققه ورتبه ووضع فهرسه: مصطفى السقا وآخران، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1972،

19- تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكاليّة التقنين والتقديس، يوسف الكلّام.

20– ابن هشام: مصدر سابق، ج1 سعد، الطبقات الكبرى، دط، بيروت، دار بيوت للطباعة والنشر،دت.

صبرة عفاف، المستشرقون ومشكلات الحضارة، دط، مصر، دار النهضة العربية، 1985.

21– لوبون جوستاف،حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، ط4، دب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دت.

22– رضا محمد رشيد، الوحي المحمدي، دط، الجزائر، دار الكتب، (1408هـ-1988م).

23-كليمان هوار: مصدر جديد للقرآن، ص133. نقلا عن: عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس.

24-طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط3، دار العلم للملايين، 1978، مج1.

25–وات منتغمري، محمد في مكة، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، دط، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.

26 –ابن خلدون: مقدمة ابن خدون، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993.

27–أحمد علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، ط1، القاهرة، دار الرياض للتراث، (1407هـ-1986م).

28- دورزة محمد، سيرة الرسول-صلى الله عليه وسلم- دط، بيروت، المكتبة العصرية، دت.

29–Blachèr. R : Introduction au coran, P50.

29-ابن سعد: الطبقات الكبرى، دط، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، دت.

30-ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دت.